

دارت في ذهن ماثيو ذكريات لم تحدث أبداً، وذلك نتيجة مرض غير معتاد أصابه. الغريب أن هذه الذكريات تبدو في ذهنه حية وواضحة كأنها أحداث وقعت بالفعل. وقد كان عليه أن يتعلم كيف يتعايش مع ماضٍ هو في الحقيقة غير أكيد تماماً كما هو شأن المستقبل. بعد عدة شهور من عملية أجريت له في الدماغ، عاد ماثيو إلى العمل كمبرمج للكمبيوتر. وكان عليه أن يشرح لرئيسه في العمل أنه يعيش مع إصابة دماغية دائمة. "الذي حدث في الاجتماع هو أن أصحاب العمل سألوا: كيف يمكننا مساعدتك؟ كيف يمكننا إعادتك لتصبح قادراً على العمل من جديد؟ لكن الذي استقر في ذهني في اليوم التالي كان أنهم سيقومون بطردي من العمل، وأنهم لن يعيدوني بأي وسيلة للعمل من جديد". ما استقر في ذاكرته كان شديد الوضوح كما يقول، ومقنعا كأى شيء حدث فعلاً. لكن ذلك كان غير صحيح على الإطلاق. اليوم، يعرف ماثيو أنها إحدى العلامات الأولى على إصابته بما يعرف باسم "اضطراب الذاكرة" نتيجة لإصابته الدماغية. اضطراب الذاكرة لا يعني أن تكذب أو أن تخادع، ولكنه يعني وجود مشاكل جوهريّة في الطريقة التي يتعامل بها الدماغ مع الذكريات بشكل يجعل المريض يبذل مجهوداً كبيراً لكي يقول شيئاً حقيقياً مستقى من شيء متخيل يتظاهر به عقله الباطن. كان اكتشاف ذلك ضربة مؤلمة لـ ماثيو (الذي نستخدم له اسماً مستعاراً احتراماً لخصوصيته). ويقول: "لقد كنت خائفاً بالفعل، المعضلة التي يعيشها، رغم أنها شاذة نوعاً ما، يمكن أن تساعدنا جميعاً على فهم مواطن الضعف في ذاكرتنا، والطرق التي تبني بها عقولنا روايتها للحقيقة. اليوم يعمل ماثيو متطوعاً في مؤسسة "هيدواي" الخيرية شرقي لندن، والتي تساعد المصابين بعاهات دماغية. التقية للمرة الأولى عندما ألقى كلمة في مؤسسة "ويلكوم كوللشن" في لندن، وأجريت مقابلة معه لاحقاً مدفوعاً بالرغبة لمعرفة المزيد عن تجربته. يتكلم ماثيو بهدوء وحذر عندما يذكر ماضيه، ويستدير كثيراً لتأكيد تفاصيل ما يقول من زميله بن غراهام، وحتى قبل إصابته، كان ماثيو طموحاً للغاية ونشأ في ظروف صعبة. فقد ولد في بيرمنغهام بالمملكة المتحدة، لكنه قضى معظم طفولته في الخارج قبل أن ينتقل للعيش مع أقاربه في لندن وهو في سن السابعة عشرة. ولكن بعد حوالي شهر طرده من بيتهم، فانتهى به الأمر مشرداً قبل أن يسكن مع راهب من الفرنسيين. وكان يذهب إلى الكلية في النهار ويعمل في الليل ليدفع تكاليف المعيشة، وحصل في نهاية الأمر على مقعد في جامعة "يونيفرستي كوليدج لندن" لدراسة الرياضيات وعلوم الكمبيوتر، وبعد تخرجه عمل كمبرمج كمبيوتر. وينبغي أن يكون الوقت قد حان بالنسبة له ليحصد جوائز مجهوده الشاق، لكن بعد عدة شهور في عمله الجديد، بدأ يلاحظ أشياء تحدث في جسده، وازدواج في الرؤية. في العادة كان عليه أن يعمل طوال اليوم وإحدى عينيه مغمضة. وقد كشف مسح ضوئي دماغي أن المشكلة تكمن في جزء من الدماغ يمثل التلايف التي تساعد على جريان وتوزيع السائل الدماغي حول أنسجة المخ. وقد نما في دماغ ماثيو كيس صغير من الأنسجة يسمى كولويد كيس، ليغلق مدخل البطين الدماغي لديه، وبالتالي يمنع السائل الدماغي من المرور. "يتزايد الضغط داخل هذا المكان في الدماغ، ويبدأ السائل بالضغط على الدماغ باتجاه الجمجمة" كما يقول فاوغان بيل، جراح الأعصاب في جامعة يونيفرستي كوليدج لندن، الذي ناقش إصابة ماثيو في اللقاء الذي نظّمته مؤسسة ويلكوم كوللشن. البطين المتمدّد في الدماغ كان أيضاً يضغط على العصب البصري، مما نجم عنه الازدواج في الرؤية. بإحداث ثقب في الجمجمة، حول خط فروة الرأس، لإزالة أجزاء من الورم وإخراج السوائل الزائدة. وبينما كان يتمثل للشفاء في المستشفى أدرك ماثيو أن العملية نتج عنها إصابته بعجز خطير في الذاكرة. وبدأ ينسى أنه رأى الناس يدخلون الغرفة ويغادرونها، بمعنى أنهم يتراوون أمامه وكأنهم يختفون ويظهرون بطريقة ما. ويقول في هذا الصدد: "كنت فقط أتذكر الناس يظهرهم في مجال بصري ثم يختفون". ويقول بيل أن ذلك يمكن أن يكون قد أتى بسبب تضرر "الجسيمات الحليمية" وهي عبارة عن زوج من الجسيمات الصغيرة المستديرة من الأنسجة (من هنا يأتي اسمها) والمعروفة بعلاقتها بعملية التذكر. ويبدو أن العقل لا يحب المساحات الفارغة، وخلال عملية التماثل للشفاء، بدأت ذاكرة ماثيو في ملء الفراغات التي خلفتها عملية فقدان الذاكرة تلك. على سبيل المثال، يسأله لماذا يتم الطلب منه أن يترك عملية العلاج، وقال فيها: "أؤكد لك أنني لست على ما يرام، هناك شيء ما غير صحيح إطلاقاً يعتريني". ولم يعرف إلا في وقت لاحق أنه قام بنفسه بوقف عملية العلاج، وكان ذلك بشكل كامل قراره الذي اتخذه بنفسه. وكذلك يحتفظ ماثيو في ذاكرته بشكل واضح أن الموظفين هم من قاموا بتسريحه من العمل. وعندما اكتشف أن لديه اضطراباً في الذاكرة شعر وكأنه اكتشف أنه لم يعد يمتلك عقله. يقول ماثيو: "عقلك ليس فقط مجرد آلة لاجتراح الحقائق. هناك فرق بين الأشياء التي تراها والأشياء التي يصورها لك دماغك لكي تفهم العالم الذي تعيش فيه". في العادة تنشأ الذكريات غير الحقيقية عن الفكرة المسبقة للطريقة التي يقع بها الحدث. فلدى عودته للعمل على سبيل المثال، كان يساوره القلق من احتمال عدم تعاطف رؤسائه مع وضعه الصحي الجديد. ويقول ماثيو: "كنت أعرف أن رؤسائي في العمل هم من رجال الأعمال القساة المتشددين في العمل. وهكذا قام دماغي بوضعهم في صندوق محدد وتوقع أن رد فعلهم سيكون بطريقة

معينة". ويعود السبب في عدم تذكر تفاصيل الاجتماع إلى فقدانه الذاكرة وهكذا قام دماغه بملء ذلك الفراغ لكي يتواءم مع تلك التوقعات. وبطريقة ما يمكن النظر إلى تلك العملية البناءة على أنها تهويل وتضخيم للوسائل التي تتذكرها جميعاً. فكلما حاولنا التفاعل مع الماضي، يقوم الدماغ بإعادة تركيب الحدث، مختاراً التفاصيل التي يبدو من المرجح أنها وقعت. ويقول ماثيو: "خلف الكواليس يقوم الدماغ بعمل أشياء كثيرة في انتقاء وفحص المعلومات. ويفحص إلى أي مدى ينبغي أن تكون هذه المعلومات قوية، ومن ثم يقوم بإهمال المعلومات غير ذات العلاقة". لا أحد منا يقوم بهذه العملية بدقة كاملة. بإمكاننا تخزين معلومات خاطئة في الذهن، في الحقيقة، ففي إحدى التجارب، روى 50 في المئة منهم قصة عن الحدث معتقدين ببراءة أنه وقع بالفعل. رغم ذلك فنحن في الغالب على صواب فيما يتعلق بالتفاصيل المهمة، لكن على ضوء إصابة ماثيو الدماغية، فإن التدقيق في الحقيقة ينحرف ولا يستقيم بحيث أن أعداداً أكبر من الذكريات باتت مزيفة، مع أن حال ماثيو ليست أشد الحالات ندرة التي صادفها بيل. على سبيل المثال، تراهم يقولون: قمت بتصنيع سفينة فضاء وحلقت حول القمر". واستيقظ أحد الزائرين لمركز هيدواي شرقي لندن من غيبوبته مقتنعاً أن رفيقته تنتظر وضع توأمين. مع أنها لم تكن حاملاً في يوم من الأيام. ويقول هذا الزائر: "اتذكر هذه الأحداث كما لو كنت اتذكر شيئاً من أيام طفولتي: فلا يوجد تمييز لدي بينهما". وماذا قال الناس، حتى رغم ذلك، يقول بن غراهام، زميل ماثيو في مركز هيدواي: "غالباً ما يقع اضطراب الذاكرة عندما يكون ماثيو قلقاً تماماً، وهذه الاضطرابات تأخذ شكل الشيء الذي يشعر حياله بالقلق". وعندما يقضيان وقتاً مع بعضهما البعض، تلك مهمة دقيقة وحساسة، ويعي غراهام أنه ربما رأى عرضاً بذوراً لذكريات زائفة في الطريقة التي يعبر بها عن شيء ما. ويقول في هذا السياق: "بإمكانك زرع فكرة ما في ذهن ماثيو، رغم هذه الصعوبات المستمرة، يزعم ماثيو أنه ليس فقدان أو اضطراب الذاكرة ما يضايقه بقدر التعب المستمر الذي يشعر به في سنوات ما بعد إجراء العملية الجراحية لدماغه. ويقول ماثيو: "إذا تلاشى التعب فسأشعر بالسعادة. ومع عدم التأكد من تشخيصه حتى الآن، وعندما يشعر بالغضب، يقوم بامتناع نفسه بامتطاء دراجته والسير بها مسافات طويلة. وعلى الرغم من رغبته في أن يعود إلى التفرغ لبرمجة الكمبيوتر، فإنه تعلم ألا يعول على المستقبل، وأن يستمتع باللحظة التي يعيشها في الحاضر،